

بحثاً عن السعادة..

لماذا لا يبدو الإنسان سعيداً في حياته ؟

لأنه أولاً: يشعر بالفارق بين الحالة التي هو عليها وبين ما يريد تحقيقه سواء كان الثروة أو السلطة أو الشهرة .. الخ. وثانياً: لأنه يشعر بالفارق بين ما يمتلكه بالفعل وبين ما يرغب في بقائه معه إلى الأبد .. لكن هذا أيضاً لا يتيسر له ، فما يلبث شبح الموت أن يتراءى أمام عينيه لينذره بقرب النهاية ، كما تسبقه الكثير من الأمراض ، ومتاعب الشيخوخة ، والإحساس بالعجز والوحدة والكآبة . وهكذا فإن الإنسان : سواء افترق ما يريد ، أو حققه لا يخلو من القلق والتوجس وتوقع الأسوأ دائماً . والنتيجة أن ما يقال عن السعادة ، أو يدور حولها لا يكاد يوجد في حياة الإنسان القصيرة نسبياً ، والتي ما يكاد يدرك معناها الحقيقي حتى يجدها تتفطّر كالماء من بين أصابعه . وليس هذا تشائماً ، إنما هو واقع الحال لمن أراد أن يتأمله بشجاعة وموضوعية . صحيح أن الإنسان قد يشعر في بعض الأحيان بلحظات من السعادة ، لكنها تكون مثل البرق : سريعة الومض ، سريعة الزوال . ولعل هذا هو أسوأ ما فيها ، لأنها تترك في حلقة مرارة ، وتشعره دائماً بالندم على عدم تمكنه من استبقائها بين يديه .

إن حياة الإنسان لا تزيد عن عدد محدود من السنوات ، لكنها تحتوى على بعض المحطات التي يحسن الوقوف عندها . والملاحظ أن الإنسان كلما بلغ واحدة من تلك المحطات لم يهدأ له بالمال ، ويروح يفكر في الاستعداد للمرحلة التالية ، وهذا ما يفقده الإحساس بالسعادة ، بل إنه بمجرد أن يستقل قطار الحياة الذي يتجه به للمرحلة التالية يكون قد نسى تماماً حلاوة الوصول للمرحلة التي غادرها .

وهنا قد يقال : إن راكب قطار المسكة الحديدية قد يسعد بالمشاهد الجديدة التى تلوح له من النافذة ، أو المواقف الطريفة التى قد تمر به وهو جالس فى مقعده ، لكن الحال ليست كذلك بالنسبة للمسافر فى قطار الحياة ، فهو قد يفاجئه الفقر أو الفشل أو المرض ، كما يمكن أن يتعرض لفقد الأحباب ، أو خيانة الأصدقاء . وهى أمور لا يكاد يخلو منها إنسان.

ليس إدراك معنى الحياة ومغزاها بهذا الشكل متاحا لكل الناس . فالغالبية العظمى يعيشون حياتهم يوما بيوم ، ولما يكاد يضم أحدهم الليل حتى يكون قد نسى ما مر به فى النهار . وربما كانت هذه - من احدى الزوايا - ميزة كبرى ، وإلا لتساوى الناس كلهم فى الحزن واليأس والإحباط . أما الذين يعرفون ويدركون . فهم القلة القليلة . وأقل منهم أولئك الذين يستطيعون أن يتوقفوا قليلا فى محطاتهم ليسعدوا بما حققوه ، محاولين نسيان ما مر بهم من مصاعب ، وتاركين هموم المستقبل لأوقاتها المقدرة فيه .

وعلى الرغم من ذلك كله ، فسوف يظل الإنسان يبحث عن السعادة ويلهث وراءها . ويبدو بالفعل أنها ساحرة ، لأنها تتمثل لكل إنسان فى الصورة التى تستهويه ، وتلهب خياله ، وتدفعه دفعا لكى يحاول الإمساك بها ، ولكن هيهات ..

فهى مثل السراب تبعد عن مكانها كلما اقتربت منها ، ومثل الصدى : تسمعه بأذنك ، ويستحيل أن تراه بعينيك .